

الحصة الثانية

المنهج الذوقي

تُثمر التجربة الصوفية معانٍ ذوقية أساسها الاجتهاد في الطاعات، والتنزل في المقامات، وتخلية الباطن من شهوات النفس وحظوظ الشيطان، حتى يصبح القلب مُهيئاً لتلقي أنوار القرب والمحبة الإلهية، وهو ما يشير إليه قوله تعالى (وَأَسْبِغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)، [لقمان. آية 20]. وهي إشارات ومواهب يتلقاها السالك في سيره، تكون له دافعا على مواصلة التقرب، وزيادة في التعلق بجناب المولى عز وجل، لما يجده من الأُنس به، والتلذذ بمناجاته، وهو صريح الإيمان الذوقي وغاية المتصوف السالك إلى الله أن يتحقق بمعرفة الله سبحانه وتعالى معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها.

المعرفة عند القوم على نوعين: النوع الأول معرفة عقلية ظاهرة تعتمد على العقل وأنظاره واستدلالاته، وعرفة باطنة ذوقية لا مدخل للعقل أو الحس فيها، وإنما هي من قبيل المكاشفات، وهذه المعرفة الذوقية الباطنة التي لا تعتمد على العقل أو الحس تتخذ من القلب أداة لها.

وحقيقة الأمر عند الصوفية أن ذات الإلهية تدرك إدراكا مباشراً، لا مدخل للعقل فيه، وذلك بواسطة أداة أخرى في الإنسان يسمونها عادة بالقلب، فالقلب هو مركز المعرفة، والله سبحانه وتعالى الذي يقذف بالمعرفة في هذا القلب، فيصبح صاحبه عارفاً محيطاً بكل شيء فالمعرفة لدنية بهذا المعنى، أي أنها من لدن الله عز وجل.

يعتمد الصوفية منهجا ذوقيا خاصا بهم ليس من السهل إخضاعه للدراسة العلمية فهو منهج خاص بأصحابه قاصر عليهم دون غيرهم وإذا أردنا أن نعبر عنه تعبيراً سيكولوجياً قلنا إنه من الاستيطان الذاتي كما أن الإدراكات المباشرة التي يتوصل إليها بهذا المنهج إدراكات خاصة لا يمكن إخضاعها للملاحظة الخارجية.

هذا والصوفية يدركون الله سبحانه وتعالى إدراكاً مباشراً مصحوباً بحالة وجدانية يصعب التعبير عنها بالألفاظ وهذا الإدراك المباشر يسمى عندهم بالكشف.

ويعرفونه بأنه تلقي الأرواح للأسرار الطاهرة في الكرامات وخوارق العادات ويعدونه طريق الإيمان بالله، والقرب منه والعبودية له، لذلك يفضل الصوفية العلوم التي تأتي عن طريق الذوق على العلوم الشرعية من الفقه والأصول وغيرها. إذ يقولون: علم الأذواق لا علم الأوراق.

تعريف الذوق : لغة : مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقاً ومذاقاً ، فالذواق وز المذاق يكونان مصدرين ويكونان طعماً كما تقول ذواقه ومذاقه طيب .

الذوق : حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر ، ويقال هو حسن الذوق للشعر ، فهامة له خبير بنقده .

الذوق اصطلاحاً : عرفه القشيري : الذوق والشرب ، يعبرون بذلك عما يجدونه من أثر التجلي ونتائج الكشوفات . وهو نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب الأولياء ، يفرقون به بين الحق والباطل ، من غير أن ينقلوا من كتاب أو غيره ..."

والكشف كما يعرفه الجرجاني (في اللغة رافع الحجاب وفي الاصطلاح هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً).

ويقول الطوسي في اللمع (الكشف بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأى عين)

ويحدثنا ابن خلدون في مقدمته عن الكشف فيقول: إنه يعرض لأصحاب المجاهدة وقد صفت نفوسهم من شوائب الحس فيدركون به من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم، وبانكشاف حجاب الحس يتلقى الصوفي المواهب الربانية والعلوم الدينية. ويحدثنا أيضاً عن الكشف بما يفيد أنه من قبيل الوجدان، ومن ثم قصرت مدارك من لم يشارك القوم ما هم بسبيله من أدواق ومواجيد عن فهم حقيقته.

وفي رسالة أرسلها الشيخ محي الدين بن عربي إلى الإمام فخر الدين الرازي (إن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ. . . فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود لا نظر وفكر وظن) .